الوَخز

ها هي الوليمةُ قد انتهت .. أقاربي المَدعُوُّون على الغداء يَربُون على العَشَرة، وبينهم **زهرة** حبيبتي وابنةُ خالي .. تصغُرُني بشهرٍ واحدٍ فقط، لكن هذا الشهر تسبب في أن تتأخر هي في دخول المدرسة عامًا كاملاً، فهي على وشك دخول الصف الخامس الابتدائي، وأنا انتهيتُ منه وأستعد للأول الإعدادي.

أبي في ركن الغرفة يشعل سيجارةً لأخيها الأكبر، وأمي تتحدث مع النساء في شؤونٍ عائليةٍ مملة .. **زهرة** عاقدةٌ شعرَها في ضفيرةٍ قصيرةٍ، وترتدي فستانًا أصفر قصير الأكمام .. لا أعرف كيف يقول أبي عن **زهرة** أنها صفراء! لون الفستان لا يشبه لون وجهها .. هي ليست أجمل بنتٍ رأيتُها، فلي زميلاتٌ في الفصل يشبهن ممثلاتٍ معروفات .. لكنها دقيقةُ الملامح إلى درجةٍ لا تسمح لي بنسيان ملامحها أبدًا ..

كم دعوتُ الله وأنا أصَلّي مع أبي في مسجد **الإمام الشافعيِّ** أن تصبح **زهرةُ** زوجتي .. حين كنا نلتصقُ سويًّا كي تلتقطَ لنا أمي صورةً ضوئيةً، كانت ملاسةُ ذراعَيها تخترقني إلى أعماق رُوحي .. ذراعايَ أيضًا لهما ملاستُهما الخاصة، لكني أشعرُ بالفارقِ بين ملاستِهما وملاسةِ ذراعَيها. أعرفُ أنني سأكتسي بالشَّعر في الوقت المناسب، وتصبح ذراعايَ خشِنَتَين كأبي، وكم أتمنى أن يحدث ذلك سريعًا لكي تُدرِكَ **زهرةُ** أنني نضجتُ، كما أدركُ أنا أنها ناضجةٌ الآن .. يُهيَّأُ لي أن ملاسةَ ذراعَيها ستخترقُني أكثرَ وأكثر حينئذٍ، لكني لا أعرف إن كان دعائي سيتلوَّنُ بالدموع وقتَها مثل الممثلين في الأفلام الرومانسيةِ أم سيظلُّ دعاءً هادئًا لا تبتلُّ له أرضيةُ المسجد ..

زهرةُ تعرفُ أني أحبُّها، وأعرف أنها تبادلُني الحُب، فقد صارحتُها بمشاعري منذ ثلاث سنين بينما نستمعُ معًا إلى أغنيةٍ لا أذكرُها لمطربتها (ليلى عفران) في بيتِ خالي .. وقد تطوَّرَ هذا الحب من يدين متعانقتَين بينما نسيرُ مع العائلة في إحدى الحدائق، إلى رقصة (تانغو) رقصناها سويًّا في شرفة بيتنا منذ أسبوعَين على موسيقى عزفَتها **زهرة** بفَمِها .. لم يتغيَّر جلدُ ذراعَيها أبدًا، بينما جِلدي أنا كان كالأرض؛ يتشقق ويتخدد ويتمدد و.....

- "أبو حلاوة يا تيييييييييييين" ...
- "**أحمد** .. انزل الآن إلى بائع التين الشَّوكي الذي يمرُّ في الشارع واشتَرِ لنا بجُنيهَين .. سيُعطيك عشرين تينة .. تذكَّر أن تعُدَّها جيدًا .. آه صحيح .. خذ معك طبقًا من المطبخ."

ما هذا المشوارُ المفاجئ؟؟ أنا لم أشترِ تينًا شوكيًّا في حياتي، فضلاً عن أني لا أذكرُ أني تذوقتُهُ من قبل! ثم إن **زهرة** ستغيبُ عن عينيَّ ريثَما أنزل إلى الشارع لأنهي هذا الأمر السخيف ، وأنا لا أراها كلَّ يوم ..

- "بابا .. لماذا لا نؤجل موضوع التين الشوكي هذا إلى ما بعد؟"

وجَّهَ إليَّ أبي نظرةً حادةً سريعةً، ثم نقلَها سريعًا باتجاه الآخرين .. كنت أعرفُ مغزى هذه النظرة. ناولَتني أمي طبقًا غَويطًا من المطبخ، وفتحت لي باب الشقة قائلةً:

- "لا تنسَ أن تَعُدَّ التيناتِ جيدًا يا أحمد"

لم يكن أمامي إلا أن أقفز السلمَ درجتَين درجتَين لأختصر هذا الوقت اللعين .. حين خرجتُ إلى الشارع وجدتُ البائع يُقَشِّرُ تيناتٍ لولدٍ آخر، ويضعُها في طبقِه .. توجهتُ إلى العربة سريعًا ..

- "أريد تينًا بجنيهين."

- "اختَر ما تشاء!"

كانت هذه ورطةً كبيرة .. فأنا لا أعرفُ كيف أختارُ ولا كيفَ أشاء .. أنا لم أذُق التينَ أبدًا، وبالتالي لا أحبُّه، ثم إن كل التينِ متشابهٌ، لا فُروقَ ظاهرة .. قلَّبتُ يُمنايَ في التين وأنا ألتقط الثمرات، أنظرُ إليها من كل أوجُهها، ثم أضعُها في الطبَق حتى اكتملت لي عشرون تينة ..

كنتُ ألاحظُ أن البائعَ ينظر نحويَ باستغرابٍ ولم أفهم لماذا .. أعطيتُهُ الجُنَيهَين وأنا ألعنُ هذا الوقتَ في سِرّي، بينما هو يُقَشِّرُ بسِكّينِهِ ما انتقيتُ من الثمار .. أخذتُ الطبقَ بعدَ أن انتهى من تقشيره، وصعدتُ سلم البيتِ مسرعًا .. ناولتُ أمي الطبقَ لتتولى هي أمره ..

لم تمضِ خمسُ دقائق وأنا جالسٌ مع **زهرة** نتحدثُ عن فيلمٍ أجنبيٍّ شاهدته أمس مع أخيها، حتى بدأتُ أُحِسُّ بباطنِ كفِّيَ اليُمنى ملتهبةً كأنَّ النارَ تخرجُ منها .. كان الألمُ يتصاعدُ بينما **زهرةُ** مسترسلةٌ في الحَكي ، وأنا أهزُّ يُمنايَ في الهواء ..

- "مالك؟" سألَتني **زهرةُ** وعيناها في عينيّ.

صرختُ عاليًا جدًّا، فقد كان الألمُ لا يُطاق .. لم يكن الوخزُ الخفيفُ الذي شعرتُ به وأنا أنتقي التيناتِ يُنبئُ عن كل هذا الألم ..

كرّرَت زهرةُ سؤالَها :

- "أحمد .. ماذا حدثَ ليدِك؟ ماذا حدث بالضبط؟؟"

كانت دمعتان قد سبقَتاني وفرّتا من عينيَّ وأنا أجيبُها:

- "لقد انتقيتُ ثمار التين الشوكيِّ بيدي اليُمنى يا **زهرة**، ولم أكن أعرفُ أنه مؤلمٌ إلى هذا الحد"

أطلقَت **زهرة** ضحكتَها الخبيثةَ وهي تضربُ كفًّا بكفٍّ، بينما أبي يقتربُ منّي مبتسمًا:

- "يا **أحمد** .. كل ما كان عليكَ أن تشيرَ للبائعِ إلى الثمرات التي لا يبدو عليها التَّلَفُ، ليضعَها في الطبق بنفسه ويقشِّرَها .. لا أحد يفعل مثلَ ما فعلتَ أبدًا"

- "أولَم يكن هذا سيُؤلِمُهُ هو الآخرَ مثلَما آلمَني؟"

- "إنه قد اعتادَ هذا بحُكمِ عملِه .. لم يَعُد جلدُ كفيهِ مُرهفًا كجلدِك." ..

فرَّت دمعتان أخرَيان وأنا أنفخُ في يدي ثم أضعُها في الماء البارد الذي أحضَرَته أمي، بينما **زهرةُ** تنظرُ إليَّ باسمةً في شُرود ..

لا أحبُّ أن يحدث مثلُ ذلك لك يا **زهرة** .. بَعُدَ الشرُّ عنكِ يا حبيبتي .. يارب .. لا تجعَل الشَّعرَ ينمو في ذراعيَّ أبدا.